نقدس ذلك الذى استطاع وسط المغريات الحقيرة وبالرغم منها أن يحتفظ بقلبه مرتفعاً إلى مستوى الخير والجمال والعظمة »

المسلمون والتاريخ القديم

صحيح أن العرب و المسلمين لم يقفوا على الطريقة العلمية الحديثة فى التنقيب عن الآثار كما اوضحنا قبلا لأن هذه الطريقة وليدة العصر الجديد ـ غير انه قد قام من المسلمين الرحالة الآتى ذكرهم هنا :

١ - ياقوت الحموى وهو مؤلف القاموس الجغرافى التاريخى المشهور «معجم البلدان» الذى وصف كل ما وقعت عليه عيناه فى رحلاته الثلاث فى ارجاء العالم الاسلامى وما جاورها من الاقاليم . وضمنه كثيرا من تراجم الناس فى اثناء ذكره للبلاد التى ولدوا فيها او نسبوا اليها

٢ - المسعودى الذى ارتحل الى بلاد فارس سنة ٩١٥ م ثم الى الهند والتبت وجزيرة سرنديب « سيلان » ثم عاد الى الغرب فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ووصف جميع هذه البلاد فى كتابه المشهور « مروج الذهب »

٣ ـ البيرونى الرياضى الفلكى .. رحل فى سبيل الفلسفة والعلم الى الهند واقام فيها ووصف ارضها ومناخها واهلها وهو مؤلف «تاريخ الهند» .

٤ ـ ابن جبير الذى طاف بـــلاد المشرق مرتين باحثا منقبا وكتب فى ذلك « رحلة ابن جبير » التى تمتاز بطلاوة اسلوبها وجزالة عبارتها كما تمتاز بصدق وصفها ودقة روايتها

٥ ـــ ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧) وهو اشهر الرحالة المسلمين فقد قام بثلاث رحلات. فطوف فى جميع الاقاليم المعروفة فى ايامه منها مراكش والجزائر وطرابلس . ومنها مصر والشام والحجاز . ومنها بـــلاد العراق والعجم والاناضول ومنها اليمن وعمان والبحرين والاحساء . ثم خراسان وتركستان وافغانستان والهند والصين وسومطرة ، ثم السودان ومجاهل افريقيا الوسطى. وكتابه من امتع واحفل كتب الرحلات . وقد لا يعيبه سوى شىء من الاسراف والإغراب أحيانا يقصد منه إلى تشويق القارىء

٦ ـ وكذلك قام الامير الفارسى ابو الفداء برحلات كثيرة تحدث عما رآه فيها فى مؤلفاته التاريخية والجغرافية النفيسة

هـــذا وقد كان اول كتاب اسلامى فى الجغرافية هو كتاب « البلخى » واسمه « صور الاقاليم » وقد كتب فى اول القرن الرابع الهجرى .

ووضع فى ذلك الوقت كتاب آخر اسمه « مسالك الممالك» للرحالة الفارسى « الكرخى

اما اهتمام المسلمين بالجغرافية فيرجع الى ترجمتهم كتابى بطليموس فى الجغرافية وفى الفلك. هذا وقد كان كثير من الرحالة تجاراً أو مغامرين تنقصهم الثقافة العلمية ولا تعنيهم الحقيقة الخالصة ؛ لا يتحققون كل مايلقى على أسماعهم ؛ فجاءت بعض أقوالهم محشوة بالاخطاء أحيانا

المنهج التاريخى الحديث عند العرب والمسلمين

لئن امتازت العصور الحديثة بوضع الدراسات المنهجية على أساس علمى مستمد من الواقع ، ليس يعنى هذا إطلاقا أن العالم القديم خلا من الدراسات المنهجية ؛ إذ أن العقل الانسانى لا يستطيع إطلاقا أن يفكر وأن يستدل من غير أن يكون له منهج يقوم عليه فكره وخطواته . نحن لا ننكر أنه كان للفكر اليونانى وهو يحاول تفسير ظواهر الوجود تفسيرا علميا أو فلسفيا بمنهج ؛ بل مناهج يسير وفقا لها يتتبع كلياتها وجزئياتها : بل إن مسألة المنهج لا تختص بجيل دون جيل أو بفرد دون فرد ؛ بل يكاد يكون لكل من الافراد منهج خاص يسير وفقا له . وقد قسمت المناهج على هذا الاساس الى قسمين : المنهج التلقائى ، والمنهج الادراكى . ولسنا نهتم بالمنهج الأول الذى هو ظاهرة

عامة مشتركة بين جميع الأفراد . أما الثانى فهو الذى نهتم به هنا وهو مجموعة القواعد والنظم التى تكون الانسان كأن يبحث شيئا من الاشياء ولم يكن المنهج على هذه الصورة لليونان فحسب بل كان لغيرها من امم الشرق . وقد وصلوا الى نتائج وبحوث عميقة من العلم التجريبى مناهج أيضاً

هذا ومنهج البحث هو المعبر عن روح الحضارة لأمة من الأمم فحيث توجد حضاره .فالمنهج المعبر عن الحضاره اليونانية هو المنهج القياسى ؛ والمنهج المعبر عن الاوربية الحديثة هو المنهج الاستقرائى أى التجريبى وعلى هذا فان المنهج ميزة من ميزات الحضارة وخصائصها غير أن المنهج لم تكن له دراسة مفصلة إلا فى العصور الحديثه . وقد بدأ الفكر الانسانى منذ راموس الى الآن يحاول وضع أسس عامة يسير عليها الفكر .

وتاريخ هذه المحاولة هو تاريخ الحضاره الانسانية التى يحياها الانسان والتى بينه وبين العالم القديم . وقد لخصت هذه المناهج العامة فى أقسام أربعة : المنهج القياسى الاستقرائى والمنهج التكوينى والمنهج الجدلى .

ونتحدث هنا عن العلوم الجزئيـــة . وهو علم التاريخ . أو بمعنى أدق نريد أن نعرض لمنهج البحث فى العلوم ونبين مقدار سبق المسلمين

للاوربيين فى هذا المضمار أما المنهج فهو . عند الأستاذ سامى الدشار وغيره . يقوم على استعادة حوادث الماضى وتكوينها ومحاولة استخراج النتائج من هذه الحوادث . والمنهج التاريخى إذن هو تطبيق لهذا المنهج فى نطاق الأبحاث التاريخية . وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو المنهج التاريخى ؟ ويستلزم هذا أن نحدد مسألتين : أولا : معنى التاريخ وثانيا : التمييز بين الظاهرة التاريخيـــة وغيرها من الظواهر الطبيعية والتاريخ بمعنى عام هو مايحدده الأستاذ GabrieL Mnod فى الفصل الذى كتبه عن منهج البحث التاريخى فى كتاب Dè La methode dans Les srienses. بأنه « مجموعـــة مظاهر النشاط والفكر الانسانى باعتبار تتابعها ونموها والتناسب والارتباط فيما بينها » .والتاريخ ينصب على الماضى . وهـذا ما يجعله غير كامل دائما فلا نصل فيه الى حقيقة كاملة مطلقة وذلك أنه فقد فى سير العصور القديمة أغلب الوقائع أو وصل مشوهـا وناقصاً . اما فى العصور الحديثة فان تنوع الوثائق وتعددها يجعل من العسير جدا الوصول الى حق مطلق فيها بل ما فيها من حق هو ذاتى snubjective لاتتحقق فيه الموضوعية والموضوعيـة هى أساس الحق المطلق . وليس يقدح هذا فى التاريخ اطلاقا فكل العلوم الاجتماعيـة يتحقق فيها عامل Snbjectivete بل ان امتز صفات هذه العلوم انها ذاتية صدرت عن ذات ابدعتها

وكما تريد. ثم إن أهم ميزة للباحث بعد الذاتية الشك فيشك أولا فى كل ما يصدر اليه من حقائق . ثم يبدأ بعد ذلك بطرق النقد فى بحث كل ما ذكرناه ثم يتلو الشك « الترجيح » فأسلوب الباحث التاريخى أسلوب ترجيحى لا يجزم بالمسألة إلا فى احوال تتضح الحقيقة فيها اتضاحا تاما . أو بمعنى أدق إن غاية الباحث التاريخى هى الحقيقة المطلقة فى اكمل صورة مستطاعة . « والشك » فى الحقيقة غير مقصور على الأبحاث التاريخية فى كل العلوم باستثناء العلوم الرياضية البحتة .

إن تحقيق Verificatoin الظاهرة الطبيعية يخضع للملاحظة ويعهد لها امكان تكررها . وتحققها على اسلوب وسياق عام . اما الظاهرة التاريخية فليست للملاحظة المباشرة أو للتجريب . انما هى حادثة فردية حدثت مرة واحدة ولن تحدث ابدا اى لن تتكرر اطلاقا

فبينما تكون الظواهر الطبيعية خاضعة لقانون ثابت عام ضرورى لا يختلف فيه الظواهر التاريخية او الاجتماعية عما فى فكرة انشاء الماضى من وحدة متناسقة . ويقوم الانشاء على تتبع حوادث الماضى والعمل على ربطها الواحدة بالأخرى .على ما بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة التاريخية من خلاف فان النتيجة القائلة بأن مناهج الملاحظة والتحليل والتركيب التى تطبق من العلوم الطبيعية لا يمكن ان تنقل — كما هى —

الى العلوم الانسانية الخلقية ؟

هذا طبيعى وبلا جدال ، وينبغى أن نلاحظ أن علماء المناهج أمثال دلتاى Diltey ولانجلوا Langlos وسينوبوس Seynobos وفلنج Fling وغيرهم لم ينقلوا مناهج العلوم الطبيعية الى مناهج العلوم التاريخية وغيرها من العلوم الاجتماعية بنصها ، بل هناك تغييرات محددة بين المنهجين . بحيث يمكن القول بأن المنهج التاريخى متميز الى حد كبير عن المنهج الاستقرائى .

ويقوم المنهج التاريخى كما يقوم المنهج التجريبى على عمليتين التحليل والتركيب . واختلافات جوهرية بين المبحثين كما قلنا

الفصل الرابع

التنقيب عن الآثار كمادة للتاريخ

يستند المؤرخ أو طالب تدوين التاريخ فى تدويناته وبحوثه الى الوثائق وأقوال الرواة والأساطير والكتب السماوية . وكذلك يستند الى ما يسفر عنه التنقيب عن الآثار من أوراق البردى والكتابات الظاهرة على الارض والمعابد